كلمة التحرير

دور اللغة في بناء الشخصية الإسلامية

هيئة التحرير

تعيش الأمة الإسلامية ظروفاً موضوعية تجعلها قابلة للانصهار في التكوينات المعرفية المتنوعة؛ فالغزو الفكري يكاد يضيع شخصيتها، والغزو العسكري يكاد يحاصرها، والغزو السياسي قوقعها في ذاتية قميئة، والغزو الاقتصادي جعلها سوقاً مستهلكاً، فنهب ثرواتها وأفقر شعوبها. ولعل ذلك كله فرض على الأمة البحث عن شخصيتها، في محاولة لفهم سيرورة النهوض الحضاري لهذه الأمة، وبناء إنسان متميز عن غيره من أبناء المجتمعات الأخرى؛ عقيدة وفكراً وسلوكاً، لتقام من خلاله حضارة فكرية ومادية متميزة عن غيرها من الحضارات.

تُعدّ اللغة العربية من أهم مقومات الشخصية الإسلامية، لا سيما بعد ارتباطها الجذري بالقرآن الكريم؛ إذ يمثل الإسلام واللغة ركنيين أساسيين في تشكيل الشخصية والهوية الإسلامية، وكلاهما متناسق مع الآخر، فاللغة العربية وسيلة أساسية لفهم الإسلام، وهي شرط أساسي لازم للتفقه في شريعته وإدراك مقاصده العليا، واستنباط الأحكام الفرعية العملية من أصوله. وقد وعى العلماء من قبلُ دلالة ارتباط العربية بالإسلام، وهما معاً يشكّلان خاصية المسلم وهويته؛ إذ إن الإقبال على تفهمه اللغة العربية من الديانة؛ فهي "أداة العلم، ومفتاح التفقه، وسبب إصلاح المعاش والمعاد."[1] يقول ابن تيمية: " واعلم أن اعتيادَ اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيّناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين. ومشابهتهم يزيد من العقل والدين والخلق. وأيضاً فإن نَفَسَ اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به

[1] الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري، **فقه اللغة وأسرار العربية**، شرح: دينزيرة شقال، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٩م، ص١٠.

فهو واجب."[٢] وبناء عليه فثمة إدراك لحاجة المفكر والفقيه والمجتهد لإتقان اللغة بكل تجلياتها، وصولاً إلى فهم سليم لمقاصد الشريعة لتحقيق مناطي النظر والعمل، فها هو عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يكتب إلى أبي موسى الأشعري: "أما بعدُ فتفقهوا في السُّنة، وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي، وتعلموا العربية فإنها من الدين."[٣]

لقد أسهم التفكير الأصولي في تجذّر العلاقة بين اللغة والدين؛ إذ جعل علماء أصول الفقه من شروط المجتهد أن يكونَ عالماً بأسرار العربية وبخاصة علم النحو، قال الأنصاري الحنفي: "من شروط المجتهد أنه لا بد من معرفة التصريف والنحو واللغة."[٤] "لأن الشريعة عربية، ولا سبيل إلى فهمها إلا بفهم كلام العرب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب."[٥] ويُكثر الإمام الشاطبي من التأكيد على أهمية احترام قواعد اللغة العربية في فهم مقاصد النصوص؛ لأن "لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشارع."[٦] ويقول أيضا: "إن الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمهما حق الفهم إلا مَنْ فهم العربية حقَّ الفهم؛ لأنهما سيان في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز؛ فإن فرضنا مبتدئاً في فهم العربية؛ فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً، فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية؛ فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية، كان كذلك في الشريعة."[٧]

يتحدث من يكتب في الخطاب والهوية عن تمييز مهم بين الهوية وخطاب الهوية فيما يتصل باللغة، فقد تكون الهويات مستقرة في مجتمع ما، ولكن الخطاب (واللغة أحد تمثّلاته) هو الذي يبرزها سلباً أو إيجاباً، ولا تكون الهوية عندئذ موجودة إلا بشكل مستقل عن المتكلمين باسمها، وبذلك يعاد إنتاج الهوية؛ أي إنتاج ثقافة تعكس العلاقة

[٢] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. **اقتضاء الصراط المستقيم**، تحقيق: عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣م، ص ٢٠٧.

[٣] ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد. **المصنف**، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤م، أحايث الأحكام، ص١٣٠.

[٤] الأنصاري، نظام الدين عبد العلي، **فواتح الرحموت بهامش المستصفى**، بيروت: دار الفكر، ج٢، ص٣٦٣.

[٥] الرازي، فخر الدين. **المحصول في علم أصول الفقه**، تحقيق: طه جابر العلواني، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٦م، ج٣، ص٣٥.

[٦] الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: محمد عبد الله دراز، ط١، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ج٤، ص٣٢٤.

[٧] المرجع السابق، ج٤، ص١١٤-١١٥.

مع الآخر، كما تعكس العلاقة مع الذات، وهي علاقة يؤدي فيها التخيّل مهمة مركزية يتمّ من خلاله تكوين رؤية للمجتمع تحرص على إخفاء الذاتية، والرجوع إلى الأصل ذي النقاوة، والابتعاد –ما أمكن– عن التلوث بالآخر، ابتغاء المحافظة على طهارة المجتمع، فهو خطاب رؤية مشوبة بالتخيّل سرعان ما يتحول إلى ممارسة ثقافية واجتماعية وسياسية، إلخ.

والهوية بحسب هذا الخطاب، تصبح مفهوماً مكتملاً، ولم يتبق سوى البحث عن صيغة التطابق مع المثال (الماضي) لتحقيق الوجود (الحاضر). وهذا ما يدعونا إلى التمييز بين الهوية وخطاب الهوية، فإذا كانت الهوية حقيقة رمزية يعيشها الأفراد والمجتمعات، فإن الخطاب المُنشأ عن الهوية هو خطاب (أيديولوجي) يتجه نحو الآخر، بغية تأكيد الذات، ورفض تماهيها مع الآخر وتمثلاته، فكُنه الذات لا يتم إلا عن طريق الآخر، ومن خلاله. من هنا فإن خطاب الهوية يطرح نفسه بوصفه خصوصية، ومن مهمة المجتمع –في صيرورته–أن يحافظ عليها، وعلى الآخر ألا يهددها أو يعمل على اختراقها. وبناء عليه تصبح الهوية البُعد الصامت الساكن، ويغدو خطاب الهوية البُعد الفّعال المتحرك. وبذلك تتمحور اللغة لتصبح واسطة تجعل من الأمة مجتمعا متخيّلاً، وتربط الفرد مع أبناء أمّته ممن لم يرهم أو يقابلهم.

وتكتسب اللغة هُويَّتَها من ماهيتها وأهميتها ووظيفتها؛ فاللغة ليست حروفاً وكلمات فحسب، بل هي حاضنة فكرية، وعامل مهم في تجسيد خصائص الأمة، وحافظة لتاريخها وداعمة لاستمراريتها، وتماسك مجتمعها وأفرادها، وأداة لنقل المعرفة والعلم، ولها مقاصد كُلّية متمثلة في: الوحدة والتجانس والتماسك. وتغدو بذلك حلقة وصل مهمة بين الماضي والحاضر والمستقبل، لذلك تجدها في حالة سيرورة وصيرورة، لا سيما إذا كان ثمة وعيٌ متنامٍ مع هذه السيرورة والصيرورة، فلغة الوعي لا تتولد إلا بالوعي باللغة وبإمكانياتها.

واللغة مفردة مهمة في تحديد الرؤية؛ إذ يعتمد عليها المجتمع اعتماداً كبيراً في صوغ عالمه وواقعه. ولأن الهوية صيغة ثقافية، واللغة تُعدّ ركناً من أركان الثقافة، فـ"هوية كل

مجتمع تتأسس على لغته." ومن هنا نجد هذا التماثل بين اللغة والثقافة؛ إذ غدت ركناً من أركانها؛ "لأنها تكون بمثابة الدم داخل الجسد الحي، فهي تحمل كل خصائص مجتمع ما إلى كل فرد من أفراده، وهي بمثابة شبكة تواصل وقنوات نقل للتراث والمعرفة الوافدة إلى الذات، والناقلة من الذات إلى الآخر، فلا جرم أن يعتصم كل مجتمع بهويته الثقافية من خلال تنشئته بلغته."[٨]

وقد يحدث شرخ وحالة فصام نكد بين اللغة والهوية، وهو ما يمثل فسخ الهوية؛ أي حدوث قطيعة مع اللغة في سياقات تقطع الذات عن اللسان، ومن ثم هي حالة تحاول تغريب اللسان بالمعنى الواسع. وفسخ الهوية يؤدي إلى قطيعة مع الأصل وإلى قطع الذات عن العلاقات الفطرية ومجالاتها الحيوية، وما من شك في أن حالة الفصام تؤدي إلى انسلاخ الإنسان عن ذاته وذاكرته، ضمن محور يحاول محو الذاكرة الحضارية، وقطع النفس عن ذاكرتها التراثية، لتتشكل في وعي ولا وعي أبناء اللغة أن لغتهم سبب رئيس في تخلفهم وفقدانهم فاعليتهم الحضارية.

صحيح أن وظيفة التواصل من أهم وظائف اللغة، إلا أنها لا تمنح اللغة خصوصية؛ إذ إنها متحققة بين الكائنات الأخرى بالقدر الذي تحتاجه، وبهذا فالتواصل لا يأخذ دوره الفعلي والجوهري، إلا إذا تعالق مع الفكر، ليشكلا هوية واضحة قادرة على تحقيق الانسجام بين الماضي والحاضر والمستقبل. ولعل الاقتصار على دور اللغة في التوصيل – بمعناه البسيط– أدّى إلى خلل واضح في فهم مقصدية اللغة، وعدّها أداةً لتوصيل المعنى فحسب، غاضين الطرف عن الأخطاء والركاكة؛ إذ لا يؤثر هذا في وصول المعنى واستيعابه.

ثمة تصور قرآني واضح لوظيفة اللغة ماثل في قوله تعالى: "وعلم آدم الأسماء كلها"؛ إذ لا تقتصر وظيفة اللغة على التواصل بالمعنى اللغوي المباشر، ولكنها تتضمن رؤية عن العالم والوجود؛ أي إننا نتمثل الكون في عقولنا، كي نستطيع تصنيف الأشياء وتمييزها من خلال ما توفره لنا اللغة. ومن هنا تأتي عبارة: اللغة وعاء الفكر؛ إذ ينبغي للإنسان العاقل

[٨] الكتاني، محمد. **أي منظور لمستقبل الهوية**، ضمن: **أعمال العولمة والهوية موضوع الدورة الأولى لسنة ١٩٩٧م**، الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، أيار ١٩٩٧م، ص٨١.

أن يُحدِث تصوّراً واضحاً وتواصلاً معرفياً مع العالم الذي يعيش فيه، فتغدو اللغة بذلك قنطرة مهمة لإحداث الاتصال بين عالم الأذهان والأعيان واللسان، فهي عملية متبادلة بين الذات والواقع، أو بين الداخل والخارج.

إننا عندما ندعو إلى التمسك باللغة العربية، فلأننا اليوم بأمس الحاجة إلى ما تحققه اللغة من النهوض بواقع الأمة والمجتمع، فاستعمالها بكفاءة وفاعلية يسهم في تحقيق الانسجام والتماسك والتجانس، والاعتزاز بالولاء والانتماء للمجتمع المتجانس والأمة المتماسكة؛ فلغة الخطاب الواحدة تيسر سبل الاتصال والتواصل. واللغة تواصل يتم عبر رموز واحدة تمثل حقيقة تكاملها وتمايزها، وخطاب يعبر عن نسق للقيم يفضي إلى حقائق اختصاصها وأصول هويتها، وهي مع ذلك كله وسيلة التعبير الاجتماعي في تميز الجماعة القومية عن غيرها من الجماعات والأقوام.[٩]

إن انتشار مفهوم الهيمنة اللغوية دليل على المحاولات المستمرة من أعداء الأمة لإفقاد اللغة العربية جوهرها التاريخي، من خلال (التدمير الخلاّق للغة العربية)؛ أي تفتيت المجتمعات العربية عن طريق تدمير اللغة ونشر الثنائية والازدواجية. وبناءً عليه ألا يحق للمجتمعات العربية خاصةً أن تنظر بعين الريبة والشك تجاه الأفكار التي تنادي بالتحديث والحداثة، وما بعد الحداثة، واللغة الكونية، إلخ من تلك المصطلحات والمفاهيم التي تجعل من اللغة الإنجليزية خاصةً شريكةً للغة العربية، أو بديلاً كاملاً عنها نراه في معظم أدوات التواصل والاتصال، ووسائل الإعلام والإعلان؟!

تعتمد نظرية التحديث على منطلق رئيس، وهو أن المجتمعات المتخلفة يجب أن تُحدِث قطيعة مع البنيات المؤسسية التقليدية التي تعرقل التطور والازدهار الاقتصادي، وبهذا ترى نظرية التحديث أن أفضل طريقة ممكنة لتجاوز التخلف تنحصر في تبني مؤسسات وأنماط سلوك شبيهة لما يوجد في المجتمعات الصناعية. وظاهر للعيان هيمنة الإنجليزية على باقي اللغات، ما دفع بعض المفكرين إلى القول بأن الإنجليزية هي لغة التحديث؛ لأنها لغة الاقتصاد والصناعة والتقدم.

[٩] عبد الفتاح، سيف الدين. **اللغة والهوية والسياسة**، ضمن: **اللغة والهوية وحوار الحضارات**، إعداد وإشراف: نادية محمود مصطفى، وسيف الدين عبد الفتاح، جامعة القاهرة ،٢٠٠٦م، ص٥٩.

إن عملية نقل العلوم لا تقتصر على لغة دون غيرها، فكم من أمم في الماضي والحاضر استطاعت أن تنهض بلغتها عن طريق الترجمة؛ إذ اعتمدت هذه الأمم على ركيزتين أساسيتين هما: الاستيعاب والتجاوز، وما النهضة اليابانية والصينية إلا مثال ناصع على قدرتهما في تحقيق التقدم العلمي على الرغم من استفحال الإنجليزية في سوق الكتاب والإعلام والشبكة العنكبوتية.

إننا بحاجة إلى تفعيل دور اللغة في حياتنا العامة، لتأخذ اللغة العربية مكانتها التي تستحقها، ودورها الإيجابي في خدمة الإنسانية. وهذا يتطلب إقناعاً للذات بضرورة ممارسة اللغة حتى لا يحدث فصام نكد بين ما نتعلمه وما نمارسه. ونجد هذا الفصام النكد في كل مناحي الحياة؛ فـ "اللغة التي يتعلمها الطالب العربي هي غير اللغة التي يسمعها في البيت أو الطريق... وما يسمعه من معلم العربية غير الذي يسمعه من معلم الجغرافيا، بل إن معلم اللغة العربية يعلمه أشياء ويستخدم أشياء غيرها... كل شيء حول العربية في(الفصل) مضادّ لها في البيت والمدرسة والشارع، وكأنما هناك هذه القربة المقطوعة، تملأ من أعلاها، فينهمر الماء من جوانبها المتهترئة والممزقة."[١٠] ولعل من أهم أسباب هذا الفصام بين اللغة الوقتية (لغة الصف أو المحاضرة)، ولغة الحياة (التعايش مع المجتمع والأسرة)، أن اللغة العربية الفصيحة وشبه الفصيحة (الوقتية) تؤخذ تلقيناً، في قوالب صمّاء دون أن يكون لها أثر في استثارة ذائقة المتلقي، وجعله معايشاً لها، ومحاوراً إياها، وصديقاً لها، فاللغة التي نتعلمها اليوم "تُجهد المعلم تلقيناً والتلميذ حفظاً، دون أن تكسبه ذوق العربية ومنطقها وبيانها."[١١]

في ظل العولمة والتسارع التقني، اللذين لا يعترفان بخصوصيات الأمم، ويعملان في الوقت ذاته على تثبيت واقع الحتمية اللغوية؛ حتى أن وجود اللغة الإنجليزية وحضورها أصبح وكأنه قدر حتمي لا مناص منه، تبدو الحاجة ملحّة لاستنقاذ الهوية اللغوية، واستثارة روح المقاومة والوقوف سدّاً منيعاً أمام محاولات الاستلاب الثقافي والطمس

[١٠] فيصل، شكري. قضايا اللغة العربية المعاصرة، **المجلة العربية للدراسات اللغوية**، مج٢، عدد١، ١٩٨٣م، ص٢٤.

[١١] عبد الرحمن، عائشة. **لغتنا والحياة**، مصر: دار المعارف، ١٩٦٩م، ص١٨٧.

اللغوي، والبناء على ما قام به السلف الصالح من محاولة الربط بين اللغة والفطرة والنص، مما سيدفعنا –مطمئنين– لإنشاء متن لغوي حرٍّ، بعيداً عن الدونية اللغوية، وبناء النظريات اللغوية المنطلقة من بنيتنا المعرفية الإسلامية. ولتحقيق ذلك ينبغي إيلاء التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية دوراً أكبر في الحياة العامة؛ إذ يغدو التفكير في المحافظة على اللغة العربية ضرورة دينية، وأمناً قومياً، ودافعاً للانعتاق من قيد الآخر.

لقد جاء هذا العدد من مجلة إسلامية المعرفة متفحصاً قضايا تتعلق باللغة من حيث قدرتها على البيان والتواصل وتحقيق مقاصد الشريعة. ففي البحث المعنون بـ: "السياق القرآني وأثره في خدمة التفسير المقاصدي عند ابن عاشور" للباحثين الدكتور نشوان عبده والدكتور رضوان الأطرش، ثمة محاولة استقصائية لتبيان أهمية السياق القرآني في خدمة التفسير المقاصدي بعامة، وعند ابن عاشور بخاصة. والكشف عن منهجية ابن عاشور في هذا السياق، رغبةً في تطوير الفكرة المقاصدية التي سخّر جل أعماله لتبيانها.

وفي بحثه الموسوم بـ: "التناسب البياني في السنة النبوية" للدكتور محمد مختار المفتي ، تناول مفهوم التناسب البياني، وأهميته، وصوره كما ظهرت في السنة النبوية. وأبرزت الدراسة الجهود المبذولة من الأقدمين والمحدثين في هذا الموضوع.

وحاول الأستاذ حمادي الموقت أن يقيم مقاربة بين اللغة ومقاصد الشريعة، وذلك في بحثه في: "البُعد اللغوي في مقاصد الشريعة"؛ إذ كشف عن العلاقة الوثيقة بين اللغة والمقصد الشرعي، وحاول أن يثبت بأنّ المعرفة باللغة العربية كانت –وستظلّ– الواجبَ الطبيعي الذي يكفل فهم النص القرآني فهماً يتوافق ومقاصده الشرعية التي جاءت لتضمن للبشر حقهم؛ في: النسل، والعقل، والنفس، والمال، والدين، في إطار الكلّيات الخمس المعروفة.

وكشف الدكتور يحيى رمضان في بحثه في: "الاستدلال اللغوي عند الأصوليين: مقاربة تداولية" عن جانب مضيء ومسكوت عنه من جوانب الإبداع في تراثنا اللغوي خاصة، وهو الاستدلال، الذي يُعدّ ركيزة أساسية من ركائز النظريات التداولية المعاصرة؛ إذ أظهر جهود علماء الأصول في هذا الحقل المعرفي.

وتضمن العدد قراءتين قيمتين: أولهما قراءة لكتاب واقعية ابن تيمية: مسألة المعرفة والمنهج لمؤلفه الدكتور أنور الزعبي، وقدّمها الدكتور محمد علي الجندي. وثانيتهما قراءة لكتاب تصنيف الفنون العربية الإسلامية لمؤلفه الدكتور سيد أحمد بخيت، وقدّمها الدكتور إدهام حنش.

واحتوى العدد ثلاثة تقارير عن نشاطات المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ أولهما عن مؤتمر: "الأسرة المسلمة في ظل التغيرات المعاصرة" الذي عقد في الأردن، وثانيهما عن: "الأيام البيداغوجية العاشرة عن رسالة الجامعة ووظيفتها" في المغرب، وثالثهما عن: الأيام العلمية لتطوير مشروع "حوار الحضارات في ظل العولمة" ونظمت في الأردن. وفي العدد حلقة جديدة من عروض مختصرة لعدد من الكتب التي صدرت حديثاً، ذات صلة بموضوعات العدد.

نسأل الله أن ينفع بمادة هذا العدد ويجزي كل من أسهم فيه بعمل، والحمد لله رب العالمين.